

الفصل الرابع

هجرة الحبشة ومحنة الطائف ومنحة الإسراء

المبحث الأول

تعامل النبي ﷺ مع سنة الأخذ بالأسباب

من السنن الربانية التي تعامل معها النبي ﷺ سنة الأخذ بالأسباب، والأسباب جمع سبب، وهو كل شيء توصل به إلى غيره، وسنة الأخذ بالأسباب مقررة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وأودعه من القوانين والسنن ما يضمن استقراره واستمراره، وجعل المسببات مرتبطة بالأسباب بعد إرادته تعالى، فأرسي الأرض بالجبال، وأنبت الزرع بالماء ... وغير ذلك. ورسول الله ﷺ كان أوعى الناس بهذه السنة الربانية، فكان -وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية- يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئاً يسيراً جزافاً وقد لمسنا ذلك فيما مضى وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

المبحث الثاني

الهجرة إلى الحبشة

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

١ - أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه وعصمه الله منهم، فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

وقد ذكر الباحثون أسباباً عديدة في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة منها ما

ذكرت، ومنها:

* ظهور الإيمان:

حيث كثر الداخلون في الإسلام، وظهر الإيمان وتحدث الناس به، قال الزهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلما كثر المسلمون، وظهر الإيمان فتحدث به ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم وأرادوا فتنهم عن دينهم فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال للذين آمنوا به: «تفرقوا في الأرض» قالوا: فأين نذهب يا رسول الله، قال: «هاهنا» وأشار إلى أرض الحبشة.

* ومنها الفرار بالدين:

كان الفرار بالدين خشية الافتتان فيه سببا مهما من أسباب هجرتهم للحبشة قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم».

* ومنها: نشر الدعوة خارج مكة:

قال الأستاذ سيد قطب: «ومن ثم كان يبحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل، القول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبية، لهم من عصبيتهم في بيئة قبلية ما يعصمهم من الأذى ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين ...».

ووافق الأستاذ غضبان الأستاذ سيد في ما ذهب إليه: «وهذه الفتنة العظيمة من (سيد) رحمه الله لها في السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكد في رأيي هو الوضع العام الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب وبدر وأحد والخندق والحديبية، لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان

آخرها هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأن رسول الله ﷺ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة أمينة للمسلمين وانتهى خطر اجتياحها من المشركين عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية التي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ لو سقطت يثرب في يد العدو.

ويميل الأستاذ دروزة إلى أن فتح مجال للدعوة في الحبشة كان سببا من أسباب هجرة الحبشة حيث يقول: «بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلا بهذا الأمل» وذهب إلى هذا القول الدكتور سليمان بن حمد العودة: ومما يدعم الرأي القائل بكون الدعوة للدين الجديد في أرض الحبشة سببا وهدفا من أسباب الهجرة إسلام النجاشي، وإسلام آخرين من أهل الحبشة، وأمر آخر، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النبي ﷺ وتوجيهه فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خير بأمر النبي ﷺ وتوجيهه، وفي صحيح البخاري: فقال جعفر: للأشعريين - حين وافقوه بالحبشة: «إن رسول الله ﷺ بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا».

وهذا يعني أنهم ذهبوا لمهمة معينة - ولا أشرف من مهمة الدعوة لدين الله - وأن هذه المهمة قد انتهت حين طلب المهاجرون.

*** ومنها البحث عن مكان آمن للمسلمين:**

كانت الخطة الأمنية للرسول ﷺ تستهدف الحفاظ على الصفوة المؤمنة؛ ولذلك رأى الرسول ﷺ أن الحبشة تعتبر مكانا آمنا للمسلمين ريثما يشتد عود الإسلام وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمنهم وطمأنهم، وفي ذلك تقول أم سلمة رضي الله عنها: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ...).

٢ - لماذا اختار النبي ﷺ الحبشة؟

هناك عدة أسباب تساعد الباحث للإجابة عن لماذا اختار النبي ﷺ الحبشة؟ منها:

أ- النجاشي العادل:

ب- النجاشي الصالح:

فقد ورد عن النبي ﷺ ثناؤه على ملك الحبشة بقوله: «وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه»، وكان ينشي (يشاع) عليه مع ذلك صلاحه ويظهر هذا الصلاح في حمايته للمسلمين، وتأثره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر - رضي الله عنه -، وكان معتقده في عيسى عليه السلام صحيحا.

ج- الحبشة متجر قريش:

إن التجارة كانت عماد الاقتصاد القرشي، والحبشة تعتبر من مراكز التجارة في الجزيرة، وربما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التجارة، أو ذكرها لهم من ذهب إليهم قبلهم وقد ذكر الطبري في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا، ومتجرا حسنا».

د- الحبشة البلد الآمن:

فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلد أكثر أمنا من بلاد الحبشة، ومن المعلوم بعد الحبشة عن سطوة قريش من جانب وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل، وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اتخاذ الحبشة مكانا للهجرة أنها: أرض صدق، وأن بها ملكا لا يظلم عنده أحد فهي أرض صدق، وملكها عادل، وتلك من أهم سمات البلد الآمن.

هـ- محبة الرسول ﷺ للحبشة ومعرفته بها:

ففي حديث الزهري أن الحبشة كانت أحب الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يهاجر إليها ولعل تلك المحبة لها أسباب منها:

* حكم النجاشي العاجل.

* التزام الأحباش بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنية.

* معرفة الرسول ﷺ بأخبار الحبشة من خلال حاضنته أم أيمن رضي الله عنها، وأم أيمن هذه ثبت في صحيح مسلم وغيره أنها كانت حبشية، كما أن النبي ﷺ كان خبيرا بطبائع وأحوال الدول التي في زمانه.

٣ - وقت خروج المهاجرين، وسرية الخروج والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله ﷺ مكة في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة، وقيل: خمس نسوة، وحاولت قريش أن تدركهم لتردهم إلى مكة وخرجوا في أثرهم حتى وصلوا البحر، ولكن المسلمين كانوا قد أبحروا متوجهين إلى الحبشة.

وعند التأمل في فقه المرويات يتبين لنا سرية المهاجرين ففي رواية الواقدي: «فخرجوا متسللين سرا» وعنه الطبري وممن ذكر السرية في الهجرة، ابن سيد الناس، وابن القيم والزرقاني، ولما وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النجاشي مشواهم، وأحسن لقاءهم ووجدوا عنده من الطمأنينة بالأمن ما لم يجدوه في وطنهم وأهليهم.

إن المتأمل في أسماء الصحابة الذين هاجروا لا يجد فيهم أحدا من الموالي الذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخباب، وعمار رضي الله عنهم، بل نجد غالبيتهم من ذوي النسب والمكانة في قريش، ويمثلون عددا من القبائل، صحيح أن الأذى شمل ذوي النسب والمكانة كما طال غيرهم، ولكنه كان على الموالي أشد في بيئة تقيم وزنا للقبيلة وترعى النسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السبب في الهجرة، لكان هؤلاء الموالي المعذبون أحق بالهجرة من غيرهم، ويؤيد هذا أن ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ولم يذكر هجرتهم للحبشة.

ويصل الباحث إلى حقيقة مهمة ألا وهي أن ثمة أسبابا أخرى تدفع للهجرة غير الأذى اختار لها النبي ﷺ نوعية من أصحابه، تمثل عددا من القبائل، وقد يكون لذلك أثر في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانب، وتهز هجرتهم قبائل قريش كلها أو معظمهم من جانب آخر، فمكة ضاقت بأبنائها، ولم يجدوا بدا من الخروج عنها بحثا عن الأمن في بلد آخر، ومن جانب ثالث يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه إلى الآفاق، وقد تكون محلا أصوب وأبرك للدعوة إلى الله فتفتح عقول وقلوب حين يستغلق سواها.

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة، وحدث تغير كبير على حياة المسلمين في مكة، وهناك ظروف نشأت لم تكن موجودة من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدعوة في مكة، حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ عصبية لابن أخيه ثم شرح الله صدره للإسلام، فثبت عليه وكان حمزة أعز فتيان قريش وأشدّهم شكيمة، فلما دخل في

الإسلام عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع وأن عمه سيمنعه ويحميه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وبعد إسلام حمزة - رضي الله عنه - أسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وكان عمر ذا شكيمة لا يرام، فلما أسلم امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازوا قريشا.

كان إسلام الرجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة، فكان إسلامهما عزة للمسلمين وقهرا للمشركين وتشجيعا لأصحاب رسول الله ﷺ على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وعن ابن عمر قال: «لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت معه أتبع أثره وأنظر ماذا يفعل حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنني أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه وتبعه عمر، واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبا قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاثلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة لقد تركناها أو تركتموها لنا «لقد أصبح المسلمون إذا في وضع غير الذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد امتنعوا بحمزة وعمر رضي الله عنهما، واستطاعوا أن يصلوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرُونَ على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين حتى دخلوا المسجد، وكفت قريش عن إيذائهم بالصورة الوحشية التي كانت تعذبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغير بالنسبة للمسلمين، والظروف التي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحولت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفى على أحد؟ وهل تظن أن هذه التغيرات التي جرت على حياة المسلمين في مكة لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحارة الذين كانوا يمرون بجدة؟

لا بد أن كل ذلك قد وصلهم، ولا شك أن هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيرا، ولا يستغرب أحد بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن، وهو فطرة فطر الله عليها جميع المخلوقات، قد عاودهم ورغبت

نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز مكة أم القرى، وإلى حيث يوجد الأهل والعشيرة فعادوا إلى مكة في ظل الظروف الجديدة والمشجعة، وتحت إلحاح النفس وحنينها إلى حرم الله وبيته العتيق».

لقد رجع المهاجرون إلى مكة بسبب ما علموا من إسلام حمزة وعمر واعتقادهم أن إسلام هذين الصحابييين الجليلين سيعتز به المسلمون وتقوى شوكتهم.

ولكن قريشا واجهت إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب التي تستعملها ضد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم سلاحا قاطعا وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية، وقد تحدث عنه وكان من جراء ذلك الموقف العنيف أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك.

ثانيا: هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة:

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائهم ولقوا منهم أذى شديدا، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ونالوهم بالأذى، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإلي، لكم هاتان الهجرتان جميعا» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم وعدتهم - كما قال ابن إسحاق وغيره ثلاثة وثمانون رجلا إن كان عمار بن ياسر فيهم واثنان وثمانون رجلا إن لم يكن فيهم، قال السهيلي وهو الأصح عند أهل السير كالواقدي، وابن عقبة وغيرهما وثمانية عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيات، وسبع غير قرشيات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا، ثم الذين ولدوا لهم فيها.

١ - سعي قريش لدى النجاشي في رد المهاجرين:

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارا واستقرارا، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفدا للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة إلا أن هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النجاشي عن حوار هادف دار بين أحد المهاجرين وهو جعفر بن أبي طالب، وبين ملك الحبشة أسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشي، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده.

فعن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشي) أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جليدين وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقه بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم قالت: فخرجا فقدمنا على النجاشي، ونحن عنده بخير دار وخير جار، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، ثم قالوا لكل بطريق منهم: إنه صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم، لتردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا

عليهم، فقالوا لهما: نعم ثم إنهما قربا هداياهن إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا: أيها الملك، إنه صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقه حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لا هيم الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوما جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسن جوارهم، ما جاوروني.

٢ - حوار بين جعفر والنجاشي:

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبد، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام .. فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به. فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي، فاقرأه علي؟

فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.
ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد.

٣ - محاولة أخرى للدس بين المهاجرين والنجاشي:

قالت أم سلمة: فلما خرجا (عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة) من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنه غدا عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا، لا تفعل، فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه، ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء، البتول.

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي (والسيوم الآمنون) من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبرا ذهبيا، وإنني آذيت رجلا منكم، والدبر بلسان الحبشة الجبل، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، قالت: فخرجنا من عنده مقبوحين مردودا عليهما، ما جاء به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

٤ - إسلام النجاشي:

وقد أسلم النجاشي وصدق بنوة النبي ﷺ وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات على الباطل وحرصهم على الضلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة وإن صادمت العقل والنقل ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - : «أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات» وعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أوصمة».

رضي الله عنه وأرضاه، وكانت وفاته رحمه الله سنة تسع عند الأكثر وقبل سنة ثمان قبل فتح مكة.

دروس وعبر وفوائد:

١ - إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد؛ لأن السيطرة في المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين، تكون دائما وأبدا لأرواحهم لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة؛ وبهذا تنتصر الدعوات وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات

٢ - مما يتبادر إلى الذهن من هذه الهجرة العظيمة هو شفقة هذا الرسول الكريم ﷺ على أصحابه ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عما فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى الملك العادل الذي لا يظلم أحد عنده، فكان الأمر كما قال صلوات الله وسلامه عليه، فأمنوا في دينهم ونزلوا عنده في خير منزل فالرسول ﷺ هو الذي وجه الأنظار إلى الحبشة وهو الذي اختار المكان الآمن لجماعته ودعوته، كي يحميها من الإبادة، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين في كل عصر أن تخطط بحكمة وبعد نظر لحماية الدعوة والدعاة، وتبحث عن الأرض الآمنة التي تكون عاصمة احتياطية للدعوة، ومركزا من مراكز انطلاقها فيما لو تعرض المركز الرئيسي للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه فجنود الدعوة

هم الثروة الحقيقية، وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم وحمايتهم، دون أن يتم

أي تفريط بأرواحهم وأمنهم، ومسلم واحد يعادل ما على الأرض من بشر خارجين عن دين الله وتوحيده.

٣ - كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددة، ولذلك حرص النبي ﷺ على اختيار نوعيات معينة لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضية الإسلام وموقف قريش منه، وإقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين، على نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك سياسي يشرح قضاياها وكسب الرأي العام إلى جوارها وفتح أرض جديدة للدعوة، فلذلك هاجر سادات الصحابة في بداية الأمر ثم لحق بهم أكثر الصحب وأوكل الأمر إلى جعفر - رضي الله عنه -.

٤ - إن وجود ابن عم رسول الله ﷺ جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقية رضي الله عنهم جميعا في مقدمة المهاجرين له دلالة عميقة تشير إلى أن الأخطار لا بد أن يتجشما المقربون إلى القائد وأهله ورحمه، أما أن يكون خواص القائد في منأى عن الخطر، ويدفع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة فهو منهج بعيد عن نهج النبي ﷺ.

٥ - مشروعية الخروج عن الوطن - وإن كان الوطن مكة على فضلها - إذا كان الخروج فرارا بالدين وإن لم يكن إلى إسلام، فإن أهل الحبشة كانوا نصارى يعبدون المسيح ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبين ذلك في هذا الحديث - يعني حديث أم سلمة - المتقدم، وسموا بهذه مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى عليهم بالسبق فقال: (والسابقون الأولون)

وجاء في التفسير: إنهم هم الذين شهدوا بيعة الرضوان فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار الكفر، لما كان فعلهم ذلك احتياطا على دينهم ورجاء أن يخلي بينهم وبين عبادة ربهم يذكرونه آمنين مطمئنين، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد وأوذي على الحق مؤمن ورأى الباطل قاهرا للحق ورجا أن يكون في بلد آخر، أي بلد كان، خلى بينه وبين دينه ويظهر فيه عبادة ربه فإن الخروج على هذا الوجه حق على المؤمن، هذه الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) [البقر: ١١٥].

٦ - يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي، إذ كان نصرانيا عندئذ، ولكنه أسلم بعد ذلك، أو كان مشركا

كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالب عم رسول الله ﷺ والمطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته عندما رجع من الطائف.

وهذا مشروط -بحكم البداهة- ألا تستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدعوة الإسلامية، أو تغييراً لبعض أحكام الدين، أو سكوتاً على إقرار بعض المحرمات، وإلا لم يجز على المسلم الدخول فيها، ودليل ذلك ما كان من فقهه ﷺ حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحمل ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء، فقد وطن نفسه إذ ذاك على الخروج من حماية عمه وأبى أن يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه.

٧ - إن اختيار الرسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطة إستراتيجية هامة، تمثلت في معرفة الرسول بما حوله من الدول والممالك، فكان يعلم طيها من خبيثها، وعادلها من ظالمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة الذي لا بد أن يكون ملماً بما يجري حوله، مطلعاً على أحوال وأوضاع الأمم والحكومات.

٨ - يظهر الحس الأمني عند الرعيل الأول في هجرتهم الأولى وكيفية الخروج فيتمثل في كونه تم تسلاً وخفية حتى لا تفتن له قريش فتحبطه كما أنه تم على نطاق ضيق لم يزد على ستة عشر فرداً، فهذا العدد لا يلفت النظر في حالة تسللهم فرداً أو فردين، وفي ذات الوقت يساعد على السير بسرعة، وهذا ما يتطلبه الموقف فالركب يتوقع المطاردة والملاحقة في أي لحظة، ولعل السرية المضروبة على هذه الهجرة، فوتت على قريش العلم بها في حينها، فلم تعلم بها إلا مؤخراً، فقامت في إثرهم لتلحق بهم، لكنها أخفقت في ذلك، فعندما وصلت البحر لم تجد أحداً، وهذا مما يؤكد على أن الحذر هو مما يجب أن يلتزمه المؤمن في تحركاته الدعوية، فلا تكون التحركات كلها مكشوفة ومعلومة للعدو بحيث يترتب عليها الإضرار به وبالدعوة.

٩ - لم ترض قريش بخروج المسلمين إلى الحبشة وشعرت بالخطر الذي يهدد مصالحها في المستقبل، فربما تكبر الجالية هناك وتصبح قوة خطيرة، ولذلك جد المشركون وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريش تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع هذا الموقع الجديد منهم في تخطيط محكم ذكي، فالهدايا إلى النجاشي والهدايا إلى بطارقه ووضعت الخطة داخل مكة، وكيف توزع الهدايا، وما نوعية الكلام الذي يرافق الهدايا، وصفات السفراء، فعمرو من أصدقاء النجاشي

ومعروف بالدهاء! وما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدونا، وألا ننام عن مخططاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقي، وندرس تحركاته، لنستعد لمواجهة مخططاته الماكرة.

١٠ - نفذت خطة قريش بحذافيرها كاملة، ولكنها فشلت؛ لأن شخصية النجاشي التي تم جوارها رفضت أن تسلم المسلمين قبل السماع منهم، وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين إلى أن يعرضوا قضيتهم العادلة ودينهم القويم.

المبحث الثالث

عام الحزن ومحنة الطائف

أولاً: عام الحزن:

١ - وفاة أبي طالب:

كانت وفاة أبي طالب بعد مغادرة بني هاشم شعبه، وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث وقد كان أبو طالب (يحوط النبي ويغضب له)

و (ينصره) ، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة جاء زعماء الشرك وحرصوه على الاستمساك بدينه وعدم الدخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام قائلاً: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال أبو طالب: لولا تعيرني بها قريش يقولون: إنما حملة عليها الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) [القصص: ٥٦] كانت أفكار الجاهلية راسخة في عقل أبي طالب، ولم يتمكن من تغييرها، فهو شيخ كبير يصعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره فأثروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه وتأثير ذلك على قومه.

٢ - وفاة خديجة رضي الله عنها:

أما السيدة خديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فقد توفيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين في نفس عام وفاة أبي طالب.

وبموت أبي طالب الذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها، تضاعف الأسى والحزن على رسول الله ﷺ بفقد هذين الحبيين اللذين كانا دعائمين من دعائم سير الدعوة في أزمتها، كان أبو طالب السند

الخارجي الذي يدفع عنه القوم، وكانت خديجة السند الداخلي الذي يخفف عنه الأزمات والمحن، فتجراً كفار قريش على رسول الله ﷺ ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون به في حياة أبي طالب وابتدأت مرحلة عصيبة في حياة الرسول ﷺ واجه فيها كثيراً من المشكلات والمصاعب والمحن والفتن حينما أصبح في الساحة وحيداً لا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالى، ومع هذا فقد مضى في تبليغ رسالة ربه إلى الناس كافة على ما يلقي من الخلاف والأذى الشديد الذي أفاضت كتب الحديث وكتب السير بأسانيدھا الصحيحة الثابتة في الحديث عنه، وتحمل ﷺ من ذلك ما تنوء الجبال بحمله، ولما تكالبت الفتن والمحن على رسول الله ﷺ في بلده الذي نبت فيه وبين قومه الذين يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة عزم ﷺ على أن ينتقل إلى بلد غير بلده وقوم غير قومه يعرض عليهم دعوته، ويلتمس منهم نصرتهم رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إلى الطائف، وهي من أقرب البلاد إلى مكة.

ثانياً: رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف:

كان النبي ﷺ ينوع ويبتكر في أساليب الدعوة ودعا سرا وجهراً، وسلماً وحرباً، وجمعاً، وفرداً، وسفراً وحضراً، كما أنه عليه الصلاة والسلام قص القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح بالخط على الأرض وغيره كما رغب وبشر، ورهب وأنذر، ودعا في كل آن، وعلى كل حال وبكل أسلوب مؤثر فعال فها هو عليه الصلاة والسلام ينتقل إلى الطائف، ثم يتردد على القبائل، ثم يهاجر ويستمر في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

كان رسول الله ﷺ يسعى لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من ثقيف لكنها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطائف التقى بعداس الذي كان نصرانياً فأسلم، وأرخ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب وخديجة، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام.

١ - لماذا اختار الرسول ﷺ الطائف؟

كانت الطائف تمثل العمق الإستراتيجي لملاً قريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها، ووثبت على وادي وج وذلك لما فيه من الشجر والزرع، حتى خافتهم ثقيف وحالفتهم وأدخلت معهم بني دوس، وقد كان كثير من أغنياء مكة يملكون

الأملاك في الطائف ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلة بني هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف فإذا اتجه الرسول ﷺ إلى الطائف فذلك توجه مدروس، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدم وعصبة تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشا، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديدا مباشرا، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج، وهذا التحرك الدعوي السياسي الاستراتيجي الذي يقوم به الرسول ﷺ يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة تطرح نفسها داخل حلبة الصراع؛ لأن الدولة أو إيجاد القوة التي لها وجودها من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس.

عندما وصل النبي ﷺ إلى الطائف اتجه مباشرة إلى مركز السلطة وموضع القرار السياسي في الطائف.

٢ - أين كان موضع السلطة في الطائف؟

كان بنو مالك والأحلاف -بحكم أسبقيتهم الزمنية للاستيطان- هما المسيطران عليها وتنتهي إليهما قيادتها فكانت لهما الرئاسة الدينية المتمثلة في رعاية المسجد بالإضافة إلى الزعامة السياسية العامة والعلاقة الخارجية والنفوذ الاقتصادي، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدفاع عن منطقة الطائف، التي كانت من أخصب بلاد العرب وأكثرها جذبا للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريش ويخافان بني عامر، وكلها قبائل قوية وقادرة على الانقضاض والاستلاب؛ ولذلك فقد اعتمد زعماء الطائف على سياسة المهادنة وحفظ الاستقرار السياسي عن طريق المعاهدات والموازنات وهي عين الطريق التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالك يوثقون علاقاتهم مع هوازن ليأمنوا شرها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريش لتأمين جانبها.

هذا ولم يكن الرسول ﷺ غافلا عن هذه الشبكة من العلاقات والمعاهدات وهو يتجه إلى الطائف، بل كان يعرف أن الطائف لم تكن توجد بها سلطة مركزية واحدة، وإنما يقتسم السلطة فيها بطنان من بطون العرب بموجب اتفاقية داخلية، وأن أيا منهما كان يدور في فلك قبيلة خارجية أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيا منهما فسوف يكون لذلك أثر كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أما إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريش، فإن خطته تكون قد بلغت تمامها وهو أمر غير مستحيل، فهو يعلم أن موادة هذا المعسكر

لقريش لا تقوم على القناعة المذهبية أو الولاء الديني بقدر ما تقوم على أساس التخوف من قريش، وعلى هذا التقدير للوضع السياسي اتجه الرسول ﷺ مباشرة حينما دخل الطائف، إلى بني عمرو بن عمير الذين يترأسون الأحلاف، ويرتبطون بقريش، ولم يذهب إلى بني مالك الذين يتحالفون مع هوازن قال ابن هشام في السيرة: «لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشrafهم، وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحييب بن عمرو وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح

غير أن بني عمرو كانوا شديدي الحذر وكثيري التخوف، فلم يستجيبوا لدعوة الرسول ﷺ بل بالغوا في السفه وسوء الأدب معه فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا عني» وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيؤزرهم ذلك عليه، فقد كان رسول الله ﷺ يود أن تتم اتصالاته تلك في جو من السرية، وألا تنكشف تحركاته لقريش فقد كان النبي ﷺ يهتم كثيرا بجوانب الحيطة والحذر فقد:

أ- كان خروجه من مكة على الأقدام حتى لا تظن قريش أنه ينوي الخروج من مكة؛ لأنه لو خرج راكبا فذلك مما يثير الشبهة والشكوك، وأنه ينوي الخروج والسفر إلى جهة ما، مما قد يعرضه للمنع من الخروج من مكة دون اعتراض من أحد.

ب- واختيار الرسول ﷺ زيدا كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنية، فزيد هو ابن رسول الله ﷺ بالتبني، فإذا رآه معه أحد، لا يثير ذلك أي نوع من الشك لقوة الصلة بينهما، كما أنه ﷺ عرف زيدا عن قرب فعلم فيه الإخلاص والأمانة والصدق فهو إذن مأمون الجانب فلا يفشي سرا، ويعتمد عليه في الصحبة، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النبي ﷺ الحجارة بنفسه، حتى أصيب بشجاج في رأسه.

ج- وعندما كان رد زعماء الطائف ردا قبيحا مشوبا بالاستهزاء والسخرية، تحمله الرسول ﷺ ولم يغضب أو يثر، بل طلب منهم أن يكتموا عنه، فهذا تصرف غاية في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتصال فإنها لا تسخر منه فحسب، بل ربما شددت عليه في العذاب والاضطهاد، وحاولت رصد تحركاته داخل وخارج مكة.

٣ - تضرع ودعاء:

كان بنو عمرو لثاماً فلم يكتموا خبر الرسول ﷺ بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويرمون عراقبيته بالحجارة، حتى دمت عقباه وتلطخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف، وما زالوا به وبزيد بن حارثة حتى ألجأوهما إلى حائط - بستان - لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فكره مكانهما لعداوتهما لله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحان من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، ولم يحركا ساكناً، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن والآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيماناً و يقيناً، ورضى بما ناله في الله، واسترضاء لله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرفت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

٤ - الرحمة والشفقة النبوية:

كانت رحمته وشفقته العظيمة هي التي تغلب في المواقف العصيبة التي تبلغ فيها المعاناة أشد مراحلها، وتضغط بعنف على النفس لتشتد وتقسو، وعلى الصدر ليضيق ويتبرم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة ورحمته العظيمة هي الغالبة.

فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين».

فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

كانت إصابته ﷺ يوم أحد أبلغ من الناحية الجسمية، أما من الناحية النفسية فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد؛ لأن فيها إرهاقا كبيرا لنفسه ومعاناة فكرية شديدة جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى قرن الثعالب.

وإننا لنلمح في هذا الدعاء عمق توحيد النبي ﷺ ومبلغ تجرده لله جل وعلا، فرضوان الله تعالى إذن هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ وهو المطلب الأعظم الذي تسخر له كل المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه فحيهلا بالبلاء، وهو ساعته نعمة ورخاء.

ثم يختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها وعلم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره «ولا حول ولا قوة إلا بك» فلا تحول للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوة على مواجهة الشدائد وتحمل المكاره إلا بالله جل وعلا.

إن الدعاء من أعظم العبادات، وهو سلاح فعال في مجال الحماية للإنسان وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشري من الذكاء والدهاء فهو عرضة للزلل والإخفاق، وقد تمر على المسلم مواقف يعجز فيها عن التفكير والتدبير تماما، فليس له مخرج منها سوى أن يجأ إلى الله بالدعاء، ليجد فرجا ومخرجا، فعندما لحق برسول الله ﷺ من أهل الطائف الأذى والطرده والسخرية والاستهزاء وأصبح هائما على وجهه، لجأ إلى الله بالدعاء فما أن انتهى من الدعاء حتى جاءت الإجابة من رب العالمين مع جبريل وملك الجبال.

٥ - من مناهج التغيير:

كان مقترح ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشيين وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال، وقد نفذ في قوم نوح وعاد وشمود وقوم لوط قال تعالى: (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) [العنكبوت: ٤٠].

وكان هناك اقتراح آخر وهو أن يستمر في هجرته والابتعاد عن مكة والطائف الكافرتين، فالأولى أخرجته والثانية خذلتها وعرض ذلك الأمر زيد بن حارثة على رسول الله ﷺ قال ابن القيم: إن رسول

الله ﷺ بعد أن لم يجد ناصرا في الطائف، انصرف إلى مكة ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوننا، وهو يدعو بدعاء الطائف المشهور، فأرسل ربه تبارك وتعالى ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشيين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان كانت بينهما، فقال: «لا، بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئا» .. وأقام بنخلة أياما، فقال له زيد بن حارثة: (كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك، يعني قريشا، وخرجت تستنصر فلم تنصر، يعني الطائف) فقال: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

كان النبي ﷺ قد عزم على دخول مكة مرة ثانية، غير أن ظاهر الأحوال تدل على أن دخول مكة لم يكن أمرا هينا ولا آمنا، وهنالك احتمال كبير للغدر به ولاغتياله من قبل قريش، التي لا يمكن أن تصبر أكثر وهو قد أعلن الخروج عليها وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى ويوقع بينها وبين حلفائها، ثم إنه حتى لو لم تكن هناك خطورة على شخصه، فإن دخوله إلى مكة بصورة (عادية) وقد طرده الطائف، سيجعل أهل مكة يصورون الأمر كهزيمة كبيرة أصابت المسلمين ويجترئون عليهم ويزدادون سفها، وذكر ابن هشام في السيرة في معرض الحديث عن إجارة المطعم بن عدي: إنه ﷺ لما انصرف من الطائف ولم يجيئوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته، صار إلى حراء ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال له: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي -سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف- بعث إليه رجلا من خزاعة، «أدخل في جوارك؟» فقال: نعم: ودعا بني وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإنني قد أجرت محمدا، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش إنني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم فأنتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وولده محدقون بالسلاح حتى دخل بيته.

لقد تغير الوضع كثيرا بسبب منهجية الرسول ﷺ الجديدة، فبدلا من أن يدخل مكة منهزما مختفيا دخلها ويحرسه بالسلاح سيد من سادات قريش على مسمع منهم ومرأى، هذا ونلاحظ أن الرسول ﷺ قد اختار رجلا من خزاعة فبعثه رسولا، وفي هذين الاختيارين حنكة سياسية مدهشة، ووعي تاريخي ودبلوماسي عميق، لأن نوفلا، وهو الأب الأكبر لقبيلة نوفل التي يتزعمها المطعم بن عدي

آنئذ، كان خصيما لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ في الجاهلية، فقد وثب على أفنية وساحات كانت لعبد المطلب، واغتصبها، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه فلم ينهض كبير أحد منهم، فكتب إلى أخواله من بني النجار من الخزرج قصيدة يستنصرهم، قالوا: فقدم عليه منهم جمع كثيف فأناخوا بفناء الكعبة وتنكبوا القسي وعلقوا التراس، فلما رأهم نوفل، قال: لشر ما قدم هؤلاء؟ فكلّموه فخافهم ورد أركاح عبد المطلب إليه، فلما نصر بنو الخزرج عبد المطلب قالت خزاعة وهم قد قووا وعزوا: والله ما رأينا بهذا الوادي أحدا أحسن وجهها ولا أتم خلقا ولا أعظم حلما من هذا الإنسان، يعنون عبد المطلب، وقد نصره أخواله من الخزرج، ولقد ولدناه كما ولدوه وإن جده عبد مناف لابن حبي بنت حليل بن حبشية سيد خزاعة، ولو بذلنا له نصرنا وحالفنا، انتفعنا به وبقومه وانتفع بنا، فأتاه وجوههم، فقالوا: يا أبا الحارث إنا قد ولدناك كما ولدك قوم من بني النجار، ونحن بعد متجاورون في الدار، وقد أمتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريش من الأحقاد، فهلّم فنحالفك فأعجب ذلك عبد المطلب وقبلة وسارع إليه، ولم يحضر أحد من بني نوفل ولا عبد شمس.

هذا النص يشير إلى جذور الصراع التاريخي القديم بين خزاعة وقريش، حينما جمع قصي بن كلاب قريشا من متفرقات المواقع، وقاتل بهم خزاعة التي كانت لديها رئاسة البيت وسيادة العرب، فأخرج خزاعة من البيت وقسم مكة أرباعا على قريش، فما زالت خزاعة مبغضة لقريش كارهين لها، ولما اضطرب الأمر بين قريش وعبد المطلب تحالفت خزاعة مع عبد المطلب نكاية بقريش وإضعافا لها، وليس صحيحا أن الأيام قد أمتت ما كان في قلوب بعضهم على قريش من الأحقاد كما ذكر وفدهم بل الصحيح أن الأحقاد لم تزل حية والصراع لم يزل مستمرا، ومما يدل على ذلك أن بني نوفل وبني عبد شمس لم يدخلوا ولم يحضرا هذا الحلف، إذ أنه حلف مضاد لهما.

فإذا بعث الرسول ﷺ رجلا من خزاعة إلى سيد قبيلة بني نوفل فإن هذا الفعل إشارة ظاهرة إلى تلك الوقائع التاريخية التي ذكرناها كما فيها تذكير بالحلف القديم بين عبد المطلب وخزاعة، ضد بني نوفل وعبد شمس ليفهم من ذلك أن الرسول ﷺ لا يقف معزولا في مكة، وأنه قد يفعل ما فعله جده عبد المطلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرسول ﷺ لم يكن في الواقع (يستعطف) المطعم بن عدي سيد بني نوفل ليدخل في جواره، بقدر ما كان يهدده ويثير مخاوفه، وحماية المطعم بن عدي لرسول الله ﷺ لم تكن مجرد (أريحية) ونبل بقدر ما كانت رعاية لمصلحته وحماية لوضعه،

وصمت قريش وهي ترى محمدا ﷺ يدخل في جوار بني نوفل ويحرسونه بالسلاح لم يكن خوفا من سلاح نوفل، وإنما خوفا من سلاح خزاعة وقسي الخزرج.

كما لا ننسى أن المطعم ممن قام بنقض الصحيفة الظالمة مع من ذكرنا فيما مضى.

أطعم لم أأخذك في يوم نجدة ولا معظم عند الأمور الجلائل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلا غير آجل

وقد حفظ رسول الله ﷺ صنيع مطعم بن عدي، وعرف مدى الخطورة التي عرض نفسه وولده وقومه لها من أجله، فقال عن أسارى بدر السبعين يوم أسرهم: «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء التني لتركتهم له».

فمع العداء العقدي فرسول الله ﷺ يفرق بين من يعادي هذه العقيدة ويحاربها، ومن يناصرها ويسالمها، إنهم وإن كانوا كفارا فليس من سمة النبوة أن تتنكر للجميل.

وهكذا ﷺ كان يوظف الأعراف والتقاليد التي في مجتمعه لمصلحة الإسلام، فكان ينظر للبناء الاجتماعي القائم، باعتباره حقيقة موضوعية، وتاريخية، وينظر للإنسان الكافر ليس

باعتباره رقما حسابيا فرديا منقطعا، وإنما ينظر إليه كفرد في شبكة اجتماعية متداخلة العلاقات ومتنوعة الدوافع، وإن الإنسان يملك الفرصة والإمكان لأن يتحول هو نفسه وطوع إرادته إلى قوة اجتماعية مؤثرة، وله وزن في اتخاذ القرار ونقضه، وفقا للقيم التي يختارها، والمطعم بن عدي لم يكن فردا وإنما كان مؤسسة، وهي مؤسسة لم تولد بميلاده، وإنما يرجع وجودها إلى تاريخ قديم، تصارعت فيها قيم التوحيد والإشراك، فإن صارت مؤسسة خالصة للكافرين الآن، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها وتسخيرها للعودة للإيمان والتوحيد.

٦ - قصة عداس النصراني وإسلام الجن:

لقد حققت رحلة النبي ﷺ انتصارات دعوية رفيعة المستوى، فقد تأثر بالدعوة الغلام النصراني عداس، الذي أسلم كما وصلت الدعوة إلى الجن السبعة الذين أسلموا ثم انطلقوا إلى قومهم مندرين.

أ- قصة عداس:

لما تعرض رسول الله ﷺ للأذى من أهل الطائف، وخرج من عندهم وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، فلما رآه عتبة وشيبة رقا له، ودعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل.

فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: «باسم الله» ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى» فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي»، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه، أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالاه: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالاه: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

* إن تسمية النبي ﷺ قبل الأكل تطبيق لسنة من سنة الإسلام الظاهرة، وقد كان بركة ذلك انجذاب الرجل النصراني إلى الإسلام، فما أن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل حتى اهتز كيانه ذلك المولى النصراني، وجاشت مشاعره فأخبر النبي ﷺ بعجبه من ذلك حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إن التسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة من أسباب تمييز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التمييز يلفت أنظار الكفار ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه.

* كان يقين عداس بنبوة رسول الله ﷺ قويا، يدل على ذلك موقفه من سيديه عتبة وشيبة ابني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدر وأمراه بالخروج معهما حيث قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في

حائطكما تريدان؟ فوالله لا تقوم له الجبال، فقال ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه.

* في قول عداس والله ما على الأرض خير من هذا مواساة عظيمة، فلئن آذاه قومه، فهذا وافد من العراق من نينوى يكب على يديه ورجليه ويقبلهما، ويشهد له بالرسالة، وإن هذا لقدر رباني يسوق من نينوى من يؤمن بالله ورسوله، حيث كان الصد من أقرب الناس إليه.

ب- إسلام الجن:

لما انصرف النبي ﷺ من الطائف راجعا إلى مكة حين يؤسس من خبر ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرسول ﷺ، فلما فرغ من صلاته، ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقص الله تعالى خبرهم على النبي ﷺ فقال: (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين - قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) [الأحقاف: ٢٩ - ٣٠].

هبط هؤلاء الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: (أنصتوا). هذه الدعوة التي رفضها المشركون بالطائف تنتقل إلى عالم آخر هو عالم الجن، فتلقوا دعوة النبي ﷺ ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذر الغفاري إلى قومه، والطفيل بن عمرو إلى قومه، وضمار الأزد إلى قومه، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلغون دعوة الله تعالى: (يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) [الأحقاف: ٣١].

وأصبح اسم محمد ﷺ تهفو إليه قلوب الجن، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجن حواريون حملوا راية التوحيد ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله. ونزل في حقهم قرآن يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى: (قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا - يهدي إلى الرشd فأما به ولن نشرك بربنا أحدا - وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا - وأنه كان يقول سفيها على الله شططا - وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا - وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا - وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا - وأنا لأمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا - وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن

يستمع الآن يجد له شهابا رسدا - وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا -
وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا - وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه
هربا - وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) [الجن: ١ - ١٣].

كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة ورسول الله ﷺ ببطن نخلة عاجز عن دخول مكة، فهل
يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب؟ وعندما
دخل النبي ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي كان يتلو على صحابته سورة الجن فتتجاوب أفئدتهم
خشوعا وتأثرا من روعة الفتح العظيم في عالم الدعوة، وارتفاع راياتها، فليسوا هم وحدهم في
المعركة، هناك إخوانهم من الجن يخوضون معركة التوحيد مع الشرك.

وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله ﷺ جاء الوفد الثاني متشوقا لرؤية الحبيب
المصطفى ﷺ والاستماع إلى كلام رب العالمين. فعن علقمة قال سألت ابن مسعود فقلت: هل
شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه
فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا
إذا هو جاء من قبل حراء فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شر ليلة بات بها قوم،
فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار
نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل
بعرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم».

ان هذا الفتح العظيم والنصر المبين في عالم الجن إرهاصا وتمهيدا لفتوحات وانتصارات عظيمة في
عالم الإنس، فقد كان اللقاء مع وفد الأنصار بعد عدة أشهر.

المبحث الرابع

الإسراء والمعراج ... ذروة التكريم

نرى أن لهذه المعجزة الجليلة أهدافا تتمثل في أمور من أهمها:

* إن الله عز وجل أراد أن يتيح لرسوله فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلبه ثقة فيه واستنادا إليه حتى يزداد قوة في مهاجمة سلطان الكفر القائم في الأرض، كما حدث لموسى عليه السلام، فقد شاء الله أن يريه عجائب قدرته، فلما ملأ قلبه بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد ذلك: (لنريك من آياتنا الكبرى) [طه: ٢٣].

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، توطئة للهجرة ولأعظم مواجهة على مدى التاريخ للكفر والضلال والفسوق، والآيات التي رآها رسول الله ﷺ كثيرة: الذهاب إلى بيت المقدس، الخروج إلى السماء، رؤية الغيب الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلين، الملائكة، السماوات، الجنة والنار، نماذج من النعيم والعذاب.

كان حديث القرآن الكريم عن الإسراء في سورة الإسراء وعن المعراج في سورة النجم، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: (لنريه من آياتنا) [الإسراء: ١] وفي سورة النجم بقوله: (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) [النجم: ١٨] وفي الإسراء والمعراج علوم وأسرار ودقائق ودروس وعبر شخصية النبي ﷺ ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وأمنت به، وبيان رسالته ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم.

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

* عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت بالبراق - وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه - قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال: جبريل اخترت الفطرة» فذكر الحديث.

* وفي حديث مالك بن صعصعة: إن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم» وربما قال: «في الحجر مضطجعا إذ أتاني آت فقد» قال: وسمعتة يقول: «فشق ما بين هذه» فقلت للجارود وهو إلى جانبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته وسمعتة يقول: من قصه إلى شعرته، «فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا، فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتيت السماء الدنيا فاستفتح قيل: من هذا؟

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم. قيل: مرحبا به (١٢) فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح،

والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما فسلمت، فردا ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال: هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى السماء الرابعة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون، فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى السماء السادسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبى الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به ونعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح ثم رفعت لي سدرة فإذا نبقتها مثل

قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما البطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور.

ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله

التخفيف لأمتك قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أَرْضَى وأَسْلَم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أَمْضِيَتْ فَرِيضَتِي وَخَفَفَتْ عَنْ عِبَادِي».

* كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته عليه السلام بسنة هكذا قال القاضي عياض في الشفا.

* فلما رجع رسول الله ﷺ من رحلته الميمونة أخبر قومه بذلك فقال لهم في مجلس حضره المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة، فقال: «إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى وصليت بهم وكلمتهم» فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صفهم لي، فقال: «أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صهبة، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، وأما موسى فضخم آدم

طوال، كأنه من رجال شنوءة متراكب الأسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خلقا وخلقا».

فقالوا: يا محمد فصف لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلا، وخرجت ليلا» فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا».

ثم سألوه عن غيرهم فقال لهم: «أتيت على عير بني فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فأنتهيت إلى رحالهم ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية - «ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبل وبرك منها جمل أحمر عليه جوالق، مخطط بياض لا أدري أكسر البعير، أم لا فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية - «ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورك وهاهي تطلع عليكم من الشية».

فقال الوليد بن المغيرة: ساحر فانطلقوا فنظروا فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال.

* كانت هذه الحادثة فتنة لبعض الناس فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس.

قال: أوقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه، أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟
قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر الصديق.

ثانيا: فوائد ودروس وعبر:

١ - بعد كل محنة منحة، وقد تعرض رسول الله ﷺ لمحن عظيمة، فهذه قريش قد سدت الطريق في وجه الدعوة في مكة، وفي ثقيف وفي قبائل العرب، وأحكمت الحصار ضد الدعوة ورجالاتها من كل جانب، وأصبح النبي ﷺ في خطر بعد وفاة عمه أبي طالب أكبر حماته، ورسول الله ﷺ ماض في طريقه، صابر لأمر ربه لا تأخذه في الله لومة لائم ولا حرب محارب، ولا كيد مستهزئ فقد آن الأوان للمحنة العظيمة، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج على قدر من رب العالمين، فيعرج به من دون الخلائق جميعا، ويكرمه على صبره وجهاده، ويلتقي به مباشرة دون رسول ولا حجاب، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق

كافة، ويجمعه مع إخوانه من الرسل في صعيد واحد فيكون الإمام والقُدوة لهم وهو خاتمهم وآخرهم.

٢ - إن الرسول ﷺ كان مقدما على مرحلة جديدة، مرحلة الهجرة، والانطلاق لبناء الدولة، يريد الله تعالى للبنات الأولى في البناء أن تكون سليمة قوية متراصة متماسكة، فجعل الله هذا الاختبار والتمحيص، ليخلص الصف من الضعاف المترددين، والذين في قلوبهم مرض، ويثبت المؤمنين الأقوياء الذين لمسوا عيانا صدق نبيهم بعد أن لمسوه تصديقا، وشهدوا مدى كرامته على ربه، فأَيَ حظ يحوطهم وأي سعد يغمرهم وهم حول هذا النبي المصطفى وقد آمنوا به وقدموا حياتهم فداء له ولدينهم، كم يترسخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الذي تم بعد وعشاء الطائف، وبعد دخول مكة بجوار وبعد أذى الصبيان والسفهاء.

٣ - إن شجاعة النبي ﷺ العالية تتجسد في مواجهته للمشركين بأمر تنكره عقولهم ولا تدركه في أول الأمر تصوراتهم ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم وتلقي نكيرهم واستهزائهم فضرب

بذلك ﷺ لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل وإن تحزبوا ضد الحق وجندوا لحربه كل ما في وسعهم، وكان من حكمة النبي ﷺ في إقامة الحجة على المشركين بأن حدثهم عن أسرائه إلى بيت المقدس، وأظهر الله له علامات تلزم الكفار بالتصديق وهذه العلامات هي:

* وصف النبي ﷺ بيت المقدس، وقد أقرؤا بصدق الوصف ومطابقته للواقع الذي يعرفونه.

* إخباره عن العير التي بالروحاء، والبعر التي أضلوه، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح.

* إخباره عن العير الثانية التي نفرت فيها الإبل ووصفه الدقيق لأحد جمالهم.

* إخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء ووصفه الجمل الذي يقدمها، وإخباره

بأنها تطلع ذلك الوقت من ثنية التنعيم، وقد تأكد المشركون فوجدوا أن ما أخبرهم به الرسول ﷺ كان صحيحا فهذه الأدلة الظاهرة كانت مفحمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب، كانت هذه الرحلة العظيمة تربية ربانية رفيعة المستوى وأصبح ﷺ يرى الأرض كلها بما فيها من مخلوقات نقطة صغيرة في ذلك الكون الفسيح، ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة؟ إنهم لا يمثلون إلا جزءا يسيرا جدا من هذا الكون، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه وخصه بتلك الرحلة العلية الميمونة وجمعه بالملائكة والأنبياء عليهم السلام، وأراه السماوات السبع وسدرة المنتهى والبيت المعمور وكلمه جلا وعلا ؟

٤ - يظهر إيمان الصديق رضي الله عنه القوي في هذا الحدث الجلل، فعندما أخبره الكفار قال بلسان الواثق، لئن كان قال ذلك لقد صدق، ثم قال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، وبهذا استحق لقب الصديق، وهذا منتهى الفقه واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر ونزول الوحي من السماء، فبين لهم أنه إذا كان غريبا على الإنسان العادي فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ﷺ.

٥ - إن شرب رسول الله ﷺ اللبن حين خير بينه وبين الخمر، وبشارة جبريل عليه الصلاة والسلام: هديت للفطرة، تؤكد أن هذا الإسلام دين الفطرة البشرية التي ينسجم معها، فالذي خلق الفطرة البشرية خلق لها هذا الدين الذي يلي نوازعها واحتياجاتها، ويحقق طموحاتها ويكبح جماحها (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الروم: ٣٠].

٦ - إن صلاة النبي ﷺ بالأنبياء دليل على أنهم سلموا له بالقيادة والريادة، وأن شريعة الإسلام نسخت الشرائع السابقة، وأنه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم أن يسلموا بالقيادة لهذا الرسول ولرسالته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

إن على الذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يدركوا هذه الحقيقة، ويدعوا إليها، وهي ضرورة الانخلاع عن الديانات المنحرفة والإيمان بهذا الرسول ﷺ ورسالته، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدعوات المشبوهة التي تخدم وضعاً من الأوضاع أو نظاماً من الأنظمة الجاهلية.

٧ - إن الربط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام وراءه حكم ودلالات وفوائد منها:

* أهمية المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين، إذ أصبح مسرى رسولهم ﷺ، ومعراجهم إلى السماوات العلاء، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكية، وهذا توجيه وإرشاد للمسلمين بأن يحبوا المسجد الأقصى وفلسطين؛ لأنها مباركة ومقدسة.

* الربط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى بمسئولية تحرير المسجد الأقصى من أضرار الشرك وعقيدة التثليث، كما هي أيضاً مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام من أضرار الشرك وعبادة الأصنام.

* الربط يشعر بأن التهديد للمسجد الأقصى هو تهديد للمسجد الحرام وأهله، وأن النيل من المسجد الأقصى توطئة للنيل من المسجد الحرام، فالمسجد الأقصى بوابة الطريق إلى المسجد الحرام، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين ووقوعه في أيدي اليهود يعني أن المسجد الحرام والحجاز قد تهدد الأمن فيهما واتجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتاريخ قديماً وحديثاً يؤكد هذا، فإن تاريخ الحروب الصليبية يخبرنا أن (أرناط) الصليبي صاحب مملكة الكرك أرسل بعثة للحجاز للاعتداء على قبر الرسول ﷺ وعلى جثمانه في المسجد النبوي، وحاول البرتغاليون (النصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة الوصول إلى الحرمين الشريفين لتنفيذ ما عجز عنه أسلافهم الصليبيون، ولكن المقاومة الشديدة التي أبدتها المماليك وكذا العثمانيون حالت دون إتمام مشروعهم الجهنمي وبعد حرب ١٩٦٧م التي احتل اليهود فيها بيت المقدس صرخ زعماءهم بأن الهدف بعد ذلك احتلال الحجاز وفي مقدمة ذلك مدينة رسول الله ﷺ وخيبر.

لقد وقف دافيد بن غوريون زعيم اليهود بعد دخول الجيش اليهودي القدس يستعرض جنودا وشبانا من اليهود بالقرب من المسجد الأقصى ويلقي فيهم خطابا ناريا يختتمه بقوله: (لقد استولينا على القدس ونحن في طريقنا إلى يثرب).

ووقفت غولدا مائير رئيسة وزراء اليهود بعد احتلال بيت المقدس وعلى خليج إيلات العقبة، تقول: «إنني أشم رائحة أجدادي في المدينة والحجاز، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها». وبعد ذلك نشر اليهود خريطة لدولتهم المنتظرة التي شملت المنطقة من الفرات إلى النيل، بما في ذلك الجزيرة العربية والأردن وسوريا والعراق ومصر واليمن والكويت والخليج العربي كله، ووزعوا خريطة دولتهم هذه بعيد انتصارهم في حرب (١٩٦٧م) في أوروبا.

٨ - أهمية الصلاة وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السنة النبوية أن الصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه ﷺ إلى السماوات وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها» فعلى الدعاة أن يؤكدوا على أهمية الصلاة والمحافظة عليها، وأن يذكروا فيما يذكرون من أهميتها ومنزلتها كونها فرضت في ليلة المعراج، وأنها من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ قبل موته.

٩ - تحدث الرسول ﷺ عن مخاطر الأمراض الاجتماعية وبين عقوبتها كما شاهد ذلك في ليلة الإسراء والمعراج ومن هذه الأمراض وعقوبتها:

* عقوبة جريمة الغيبة والمغتائبين، فقد رأى رسول الله ﷺ أناسا يأكلون الجيف فأخبره جبريل: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس».

* عقوبة أكلة أموال اليتامى، فقد رأى رسول الله ﷺ رجالا لهم مشافر -شفاه كبيرة- كشفاه البعير في أيديهم قطع من نار كالأفهار (أي الحجارة) يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم فأخبره جبريل: «هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما».

* أكلة الربا، فقد أتى النبي ﷺ على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فأخبره جبريل: «هؤلاء أكلة الربا».

* وذكرت الروايات عقوبة الزناة ومانعي الزكاة وخطباء الفتنة والتهاون في الأمانة.

* ثواب المجاهدين، ففي ليلة الإسراء والمعراج مر رسول الله ﷺ على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عادوا كما كان فأخبر جبريل: «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يخلف».

١٠ - إدراك الصحابة لأهمية المسجد الأقصى: أدرك الصحابة رضي الله عنهم مسئوليتهم نحو المسجد الأقصى وهو يقع أسيرا تحت حكم الرومان، فحرروه في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وظل ينعم بالأمن والأمان حتى عاث الصليبيون فسادا فيه بعد خمسة قرون من هجرة المصطفى، ومكثوا ما يعادل قرنا يعيشون فسادا فحرره المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهودي فما الطريق إلى تخليصه ؟.

الطريق إلى تخليصه الجهاد في سبيل الله على المنهج الذي سار عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

المبحث الثاني

مواكب الخير وطلائع النور

قال جابر بن عبد الله الأنصاري:

مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة في المواسم بمنى يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو مضر، فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأويناه، وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

أولا: الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة:

١ - إسلام سويد بن الصامت:

كان رسول الله ﷺ لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الله وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق، فقدم سويد بن الصامت - أخو بني عمرو بن عوف - مكة حاجا أو معتمرا، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجلده، وشعره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له

رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: مجلة لقمان، فقال له رسول الله: «اعرضها علي» فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله علي، هو هدى ونور» فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله يوم بعث وعلى أية حال لا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه.

٢ - إسلام إياس بن معاذ:

لما قدم أبو الحيسر بن رافع مكة ومعه فتیان من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: هذا والله خير مما جئتم له فيأخذ أبو الحيسر كفاً من تراب، فضرب به وجهه، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روي من حضره من قومه أنه ما زال يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

ثانياً: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفد من الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى، قال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟».

قالوا: نفر من الخزرج. قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم: تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما

عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا، وكانوا ستة نفر: وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رثاب. فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا بينهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ.

فهذا أول موكب من مواكب الخير، لم يكتف بالإيمان، وإنما أخذ العهد على نفسه أن يدعو إليه قومه، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله ﷺ، فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم فلم تبق دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر لمحمد ﷺ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد، لكنه لقاء هياه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ... وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار، بل إنها على التحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كله ونقل الحياة من الظلمات إلى النور.

أكان معقولا في لحظة يسيرة أن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين إلى أنصار للدعوة متفتحين، وجنود للحق مخلصين، ودعاة إلى الله متجردين يذهبون إلى أقوامهم وبين جوانحهم نور، وعلى وجوههم نور، وإنهم لعل نور؟ تلك مشيئة القدر العالي هيأت للدعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين، والسنوات العجاف التي قضاها الرسول ﷺ نضالا مستمرا، وكفاحا دائما، وتطوفا على القبائل، والتماسا للحليف، قد ولت إلى غير رجعة، سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة، وجيشه الباسل وسيلتقي الحق بالباطل ليصفي معه حساب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب الخير وطلائع النور التي هياها الله للخير لتتصل بالهداية وتسبح في النور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب بما وعت من خير، وبما حلمت من نور.

ومن الجدير بالتنبيه أن هذه المقابلة التي حدثت عند العقبة وتلاقى فيها فريق من الخزرج بالنبي ﷺ وأسلموا على يديه لم تكن فيها بيعة ؛ لأنها كانت من نفر صغير لا يرون لأنفسهم الحق في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم في المدينة ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام.

ثالثا: بيعة العقبة الأولى:

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول ﷺ وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه ﷺ بالعقبة وبايعوه بيعة العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) مما يشير إلى نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمرکم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب».

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول ﷺ عليها النساء فيما بعد ولذلك عرفت باسم بيعة النساء ، وقد بعث الرسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فكان يسمى بالمدينة (المقرئ)، وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله ﷺ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان - رضي الله عنه - بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدرا كبيرا، فضلا عن قوة إيمانه وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارا من كبار زعمائها كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم.

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير - رضي الله عنه - في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم وتفسيره وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي ﷺ وصحبه بمكة المكرمة لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير - رضي الله عنه - في يثرب على أسعد بن زرارة - رضي الله عنه - ونشط المسلمون في الدعوة إلى الله يقود تلك الحركة الدعوية الرائدة مصعب - رضي الله عنه -، وقد انتهج منهج القرآن الكريم في دعوته وهذا الذي تعلمه من أمامه ﷺ، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنية المكية بصورة عملية حية قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) [النحل: ١٢٥].

رابعاً: قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانهما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قوم، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتما فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره؟

قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام - قبل أن يتكلم - في إشراقه وتسهيله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا

الدين؟ قالوا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي فقام فغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديمهم، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدث أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك.

فقام سعد مغضبا مبادرا مخوفا للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئين فعرف أن أسيد إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره، وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله سيد من ورائه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالوا: فعرفنا -والله- في وجهه الإسلام -قبل أن يتكلم- في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فغتسل وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائدا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيية، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد

بأحد، ولم يصل لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

وقد روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن أبي هريرة أنه كان يقول: «حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس قال هو أصيرم بني عبد الأشهل».

خامسا: فوائد ودروس وعبر:

١ - اتجه التخطيط النبوي للتركيز على يثرب بالذات، وكان للنفر الستة الذين أسلموا دور كبير في بث الدعوة إلى الإسلام خلال ذلك العام.

٢ - كانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة منها:

- ما طبع الله عليه قبائل الخزرج والأوس من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفد وفد من اليمن بقوله: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا» وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم فيقول القرآن الكريم مادحا لهم: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [الحشر: ٩].

- ومنها التشاحن والتطاحن الموجودان في قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بعاث وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرها حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبق إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بعاث يوما قدمه الله تعالى لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام».

- ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم -ولو يسير- بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم في مجتمعهم يعيشون هذه القضية في حياتهم اليومية وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب وإنما غاية أمرها أن تسمع أخبارا متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي دون أن تلح عليها هذه المسألة أو تشغل تفكيرها باستمرار، وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قد أظل زمانه ويزعمون أنهم

سيتعبونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم، مع أن الأوس والخزرج كانوا أكثر من اليهود، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز قال تعالى: (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) [البقرة: ٨٩]. وكان الأوس والخزرج قد علوا اليهود دهرا في الجاهلية، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً قد أظل زمانه، يقاتلكم قتل عاد وإرم.

فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة للنبي ﷺ فالتقى بهم عند العقبة - عقبة منى - فعرض عليهم الإسلام فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبي ﷺ في بيوتها وكان هذا هو (بدء إسلام الأنصار) كما يسميه أهل السير.

٣ - حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس، وهذا تطور مهم لمصلحة الإسلام، فبعد الحرب العنيفة في بعاث استطاع النفر الستة من الخزرج أن يتجاوزوا قصة الصراعات الداخلية ويحضروا معهم سبعة جددا، فيهم اثنان من الأوس، وهذا يعني أنهم وفوا بالتزاماتهم التي قطعوها على أنفسهم في محاولة رآب الصدع، وتوجيه التيار لدخول الإسلام في المدينة أوسها وخزرجها وتجاوز الصراعات القبلية القائمة.

٤ - بذل الرسول ﷺ كل ما يملك من جهد لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصير للجهد البشري الممكن في بناء القاعدة الصلبة التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة، واحتمل هذا الجهد ستين كاملتين من الدعوة والتنظيم.

٥ - نجحت التعبئة الإيمانية في نفوس من أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنه قد آن الأوان لقيام الدولة الجديدة، وكما يقول جابر - رضي الله عنه - وهو يمثل هذه الصورة الرفيعة الرائعة: «حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويتردد في جبال مكة ويخاف».

٦ - وصل مصعب - رضي الله عنه - إلى مكة قبيل الموسم من العام الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج، وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة قادرة على حماية رسول الله ﷺ ومنعته.

٧ - كان اللقاء الذي غير مجرى التاريخ في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من البعثة، حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب، فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

المبحث الثالث

بيعة العقبة الثانية

قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - : [.. فقلنا، حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟

قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكم الجنة».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو من أصغرهم، فقال: رويدا يا أهل يثرب، فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجنا اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبنه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسليها أبداً قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب؛ لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب ، أما رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري، وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية، ففيها تفاصيل مهمة قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا .. ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ... وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نساءنا، نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب: فبين أن الرسول في منعة من قومه بني هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة؛ ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم» فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرننا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلا: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالا، وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم».

ثم قال: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم».

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذرا قريشا، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيا فانا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ﷺ ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم قال: ثم قال القوم

وفيهما الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديان قال: فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم فيما قالوا بها: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعهما الحارث فخلعهما من رجله ثم رمى بها إلي، وقال: والله لتتعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فاردد إليه نعليه، قال: قلت: لا، والله لا أردهما فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنه.

دروس وعبر وفوائد:

١ - كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي (فتح الفتوح)؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر موثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها، ولم يغب عن أنصار الله قدرها ووزنها في ميادين الحروب والقتال، وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عال مستكبر في الأرض حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل ونصر واستشهاد وتبليغ لرسالة الإسلام.

٢ - إن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله ﷺ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسبا ولا منصبا ولا قيادة ولا زعامة، وهم الذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم يتصارعون على الزعامة والقيادة إنه أثر الإيمان بالله وبحقيقة هذا الدين عندما يتغلغل في النفوس.

٣ - يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديا خطيرا وجريئا لقوى الشرك في ذلك الوقت؛ ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي :

أ- سرية الحركة والانتقال لجماعة المبايعين، حتى لا ينكشف الأمر فقد كان وفد المبايعات المسلم سبعين رجلاً وامراتين، من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة، مما يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمراً غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرجل، كما تم تحديد المكان في الشعب الأيمن، بعيداً عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة.

ب- الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فخرجوا يتسللون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

ج- ضرب السرية التامة على موعد ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب الذي جاء مع النبي ﷺ ليتوثق له وعلي بن أبي طالب الذي كان عيناً للمسلمين على فم الشعب، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق وهو الآخر عين للمسلمين، أما من عداهم من المسلمين وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين أن لا يرفعوا الصوت، وأن لا يطيلوا في الكلام، حذراً من وجود عين يسمع صوتهم، أو يجس حركتهم.

د- متابعة الإخفاء والسرية حين كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم ولا يحدثوا شيئاً، رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر، موه المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع.

هـ- اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالثة عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي وهو اليوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث.

٤ - كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التميع والتراخي إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم ونصر لرسول الله وحمايته إذا قدم المدينة

٥ - سرعان ما استجاب قائد الأنصار دون تردد البراء بن معرور قائلاً: والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر،

فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله ﷺ فقومه أبناء الحرب والسلاح ، ومما تجدر الإشارة إليه في أمر البراء أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأيا فوالله ما أرى أتوافقوني عليه أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية -يعني الكعبة- مني بظهر، وأن أصلي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي ﷺ يصلي إلا إلى الشام بيت المقدس، وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلوا إلى بيت المقدس، وصلى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع عمه العباس بالمسجد الحرام، فسأل النبي ﷺ العباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم فقص عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة، قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها» قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلى معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه ﷺ بشهر، وأوصى بثلث ماله للنبي ﷺ، فقبله ورده على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ- الانضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره يتعارض مع ذلك يعتبر مرفوضا، وهذه من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها من حياتهم وهم بعد ما زالوا في بداية الطريق.

ب- إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله ﷺ، وإن توقيف أي إنسان واحترامه إنما هو انعكاس لسلوكه والتزامه بأوامر الرسول ﷺ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية لتحل محلها قيم إيمانية فهي المقاييس الحقة التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفا وترتيباً.

٦ - كان أبو الهيثم بن التيهان صريحا عندما قال للرسول ﷺ: إن بيننا وبين الرجال حبالا وأنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم»، وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية

العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته وكان جواب سيد الخلق ﷺ عظيماً، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار والأنصار جزءاً منه.

٧ - يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة منها:

أ- أن الرسول ﷺ لم يعين النقباء إنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسئولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شوري وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشورى عملياً من خلال اختيار نقبائهم.

ب- التمثيل النسبي في الاختيار، من المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

ج- جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر معتنقوه، وأراد الرسول ﷺ أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره.

٨ - تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة التي تمت بين رسول الله ﷺ والأنصار، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عباداً بأذاخر، والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجملته وكان ذا شعر كثير واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية وجبير بن مطعم؛ لأنه كان يجير تجارتهم ببلده، فقد أنقذته أعراف الجاهلية، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضة من ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وعاجزون عن حماية أنفسهم.

٩ - في قول العباس بن عباد بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا، وقول رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكُم» درس تربوي بليغ وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر

المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه ، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى أدت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات عن العدو وتنفيذها هو الكفيل بإذن الله بنجاحها «ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

١٠ - كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله ﷺ يده وقالوا: له ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الواقعة فكانت قولاً، ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته ﷺ حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقنا عهدهما، فأما نسيبة بنت كعب (أم عمارة) فقد سقطت في أحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عميقة وشهدت بيعة الرضوان وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إرباً إرباً فما وهنت وما استكانت ، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد فقاتلت حتى قطعت يدها وجرحت اثني عشر جرحاً ، وأما الثانية فهي أسماء ابنة عمرو من بني سليمة قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً.

١١ - عندما تراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية، من الأنصار في كتب السير والتراجم نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة النصف، فثلاثة وثلثون منهم كانوا بجوار الرسول ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع رسول الله ﷺ فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيداً، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة وشارك في أحداثها الجسام بعد